توبة منسّى الملك

القدّيس كليوبا إيليا (الروماني)

أخطأ منسّى، ملك يهوذا في العهد القديم، أمام الله أكثر من أيِّ أحدٍ آخر. فقد أرغمَ الشعب بأكمله، على مدى 52 عامًا، على عبادة الأوثان والآلهة الغريبة وإنكار الله. وهجرَ الله هو وأولاده وعائلته كلّها. كان يقتل كلّ مَن يرفض عبادة الأوثان وتقديم الأضاحي للآلهة، مستخدمًا أفظع التعذيبات.

إذًا، ارتكب هذا الملك خطايا لا تُحصى له. لكنَّ الإله الكلّيّ الرحمة، لكي يُظهِرَ عمق محبّته الرؤوفة ورحمته التي لا حدَّ لها، قاد منسَّى إلى التوبة عبر الحكم عليه. فكيف حصل ذلك؟

كان هذا الملك، على الرغم من شرِّه، من عائلةٍ صالحة. وكان والده حزقيا ملكًا مرضيًّا لله، عاش في زمن النبيّ إشعياء. وقد صلّى إلى الله ليُعيد ابنه الذي ابتعد عن خالق السماء والأرض. فكيف أعاد الله منسّى؟

رأى الله شرّ منسّى وقلّة إيمانه؛ وعرف أنّ ذهنه قد أظلم إلى درجة أنّه لم يبتعد عن الله فحسب، بل دفع بأمّته كلّها إلى طريق الهلاك وأجبرَهُم على ترك الله. غير أنّ الله يعرف كيف يقود الجميع إلى التوبة، فوضع لمنسّى لجامًا ورسنًا على حدّ قول المزمور: "باللِّجام والرَّسَن يُكبَحُ جماحُهما، لكي لا يقتربا منك" (مز 31/32: 9).

هذا ما حصل لمنسّى الملك؛ فلو تركه الله على ما كان، لم يكن ليتوب. أرسل له الله قادةً من قبل ملك بابل على رأس جيشٍ كبير؛ فاحتلّوا أورشليم وأخذوه أسيرًا. قيّدوه ووضعوه في قفصٍ حيث لم يستطع أن يقف. قيّدوه بسلاسل معدنيّة محنيَّ الرأس نحو القدمين، فبدا كالصنّارة. ولم يستطع أن يرفع رأسه في القفص، بل جلس مقيّدًا ومعقوفًا.

ظنّ ملك بابل أنّ منسّى لن يعيش إلّا أسبوعًا أو أيّامًا قليلة. فكان يُطعمه خبزًا وماءً مرّتين في الأسبوع. وظلّ يسأل خدّامه: "ألم يمُت الملك منسّى بعد؟"، فكانوا يجيبونه: "لم يمُت، جلالتك. إنّه لأمرٌ عجيبٌ أنّه ما زال على قيد الحياة يتحرّك في قفصه".

وعاش منسّى في هذا القفص مقيّدًا بالسلاسل لا أسبوعًا، ولا شهرًا، ولا عشرة أشهر، بل ما يزيد عن سبع سنوات.

كانت عجيبةً عظيمةً أن يبقى على قيد الحياة رجلٌ يتناول الخبز والماء مرّتين في الأسبوع، وقد قُيّد رأسه إلى قدميه. وصار هذا الملك، الذي لم يُرد الله أن ينتزع منه شرارة الحياة، جلدًا وعظمًا بعد العذابات والأحزان التي عاناها. تخيّلوا ما كان يقاسيه. عندها، تذكّر منسّى الله وقال: "لقد ساقني الله إلى هذا العذاب والألم لأنّني أغضبتُه. لقد ابتعدتُ عنه وأجبرتُ شعبه على التضحية للأوثان!". وفكّرَ في قلبه: "ماذا يريد الله منّي ليتركني على قيد الحياة حتّى الآن. إنّه بالتأكيد يريد خلاصي".

عندها، تنهّد منسّى من أعماق قلبه، وذرف الدموع، وصلّى إلى الله بحرارة:

"يا ربّ، يا إله إبراهيم واسحق ويعقوب، يا إله السماء والأرض! إذا كنتَ، يا ربُّ، قد رحمتَني ولم أمُت بعد هذه السنين كلّها، وما زالت فيّ حياةٌ على الرغم من ثقل أغلالي، فهذا يعني أنّك تنتظر عودتي إليك.

يا ربّ، يا إلهي، لا أستطيع أن أثني ركبتيّ، لا أستطيع أن أحني رأسي إلى الأرض لأنّي مكبَّلٌ بسلاسل معدنيّةٍ ثقيلةٍ طوَتني وبات رأسي عند قدميّ، لكي لا أستطيع أن أصلّي لك.

لا يمكنني السجود لك، لا أستطيع أن أخرّ نحو الأرض لأنّي مقيّد. لكنّني أتضرّع إليك يا ربّ، وأحني ركبة قلبي: اذكرني يا ربّ لأنّه ليس عجيبًا أن ترحم البارّ، لم تضع التوبة لإبراهيم واسحق ويعقوب ونسلهم الصدّيق، بل وضعت التوبة للخطأة.

لذلك، أيّها الربّ الإله، إذا نظرتَ إلى داخل قلبي، ورحمتَني، وغفرتَ لي زلّاتي التي هي أكثر من عدد رمل البحر، فانّ رحمتك التي لا توصَف ستُعرَف يا ربّ، وكذلك محبّتك الرؤوفة التي لا يمكن لبشر تصوُّرها".

هكذا صلّى منسّى من أعماق قلبه، ذارفًا الدموع بألمٍ عظيمٍ في عذاباته. فذكرَه الله الكلّيّ قدسه، ووضع فكرًا في ذهن ملك بابل ليُحرّر منسّى من أغلاله ويطلقه من قفصه. وبعد أن أطلقوه، راح منسّى يتحرّك في دوائر، وذلك بسبب الوقت الطويل الذي قضاه معقوفًا. كانت عظامه قد التوَت، ولم يعد بإمكانها أن تتمدّد. تفكّروا

كم كان من الرهيب رؤية رجلٍ مستدير الشكل، وقد صار جلدًا على عظم، والإشفاق عليه! كم كان ذاك مريعًا!

صرخ الوثنيّون البابليّون قائلين: "ألا يزال هذا الرجل على قيد الحياة؟ ألا يزال كائنًا بشريًّا؟". ثمّ أطلقوا سراحه وأخذوا يغذّونه شيئًا فشيئًا، ويهتمّون به. وبعد أشهرٍ قليلة، لم يستعِد الرجل صحّته فحسب، بل أُرسِلَ ملكًا على أورشليم من قِبَلِ ملك بابل القائل: "إن الله الذي يعبده منسّى قد غفرَ له بفضل توبته العظيمة".

أضحى منسّى ملكًا من جديد وأعاد شعبه إلى عبادة الله. وقد صنع الأعمال الصالحة على قدر الإمكان حتّى نهاية حياته، وكتب هذه الصلاة العظيمة التي نتلوها خلال صلوات النوم الكبرى، وهي "صلاة منسّى ملك يهوذا".

هل رأيتُم حكمة الله؟ هل سمعتُم ما يقدر الله على فعله؟ جعل الله ملكًا وقدّيسًا من ملكٍ وثنيٍّ ذي خطايا أكثر عددًا من نجوم السماء ورمل البحر، لأنّ منسّى تاب من أعماق قلبه، وذرف دموعًا ملتهبة، وعُذِّب سنين عديدة بأصوامٍ كثيرةٍ وآلامٍ وأوجاع، لكنّه لم يفقد الرجاء برحمة الله.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint Cleopa (Ilie) of Sihastria (n.d.). *Conversations with Elder Cleopa, vol.2*. In *Sayings of the Romanian Elders*. Substack.